اشتراكية الشعراء الصعاليك

الدكتور محمد مصطفى هداره

الصعلكة في مفهومها اللغوي الفقر الذي يجرد الانسان من ماله ، وهذا المعنى مأخوذ فيما يبدو من المعنى الحسي الاول وهو تجرد الابل من أوبارها • والصعلكة لا تعني الفقر وحده اذ زاد علماء اللغة في تعريف الصعلوك « بأنه الفقير الذي لا مال له ولا اعتماد » • معنى آخر هو انسداد أبواب الرزق ومسالكه في وجه من تصعلك بالاضافة الى تجرده من المال •

والشعراء الصعاليك طائفة ممن تنطبق عليهم أوصاف الصعلوك ، ظهروا في تاريخ الادب العربي في الجاهلية وأدرك بعضهم الاسلام مثل فضالة بن شريك وأبى الطمحان القيني ، ولكن سلوكهم الاجتماعي في الحياة أضاف الى معنى الصعلكة مدلولا جديدا هو الغزو والاغارة والفتك ، وان كان هذا المدلول في الحقيقة نتيجة مترتبة على المعنى الاول للصعلكة وهو الفقر •

ولست بمتحدث في هذا المقال عن خصائص شعر الصعاليك الذي يفترق في بعض نواحيه عن الشعر الجاهلي بصفة عامة ، ولكني سوف أتناول جانبا من حياة أولئك الصعاليك ترجموه لنا في أشعارهم ، فكان مطابقا — في رأيي — كمذهب اجتماعي واقتصادي للمبادىء العامة الاساسية في المذهب الاشتراكي • وعندما أتحدث عن هذا المذهب لا أعني الحديث عن الاشتراكية المادية ، ولكنني أقصد الاشتراكية بمعناها الانساني العام •

وأول ما يطالعنا من أدب الصعاليك موضوعيته الانسانية التي تعتبر نقطة البداية في كل أدب اشتراكي ، لان أساسه عدم الاعتراف بطلب الادب لذاته أو الثقافة لذاتها ، أو حتى العلم من أجل العلم ، بل هو يهدف دائما الى الربط بين الفن والحياة • ولا شك أن أدب الصعاليك كان صورة قوية معبرة عن المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ، والذى كانت تتفاوت طبقاته تفاوتا بينا ، فكان شعرهم سلاحا من أسلحة الصراع الطبقي الذى كان يدور في البيئة العربية الجاهلية ، وتنفعل به نفوسهم التي تقطر مرارة وأسى على واقعها الأليم الذي تعيش فيه •

لقد كان الصعاليك فقراء ، ولكنهم لم يكونوا عاجزين عن ادراك الغنى بالوسائل المشروعة ، بيد أن مجتمعهم كان ظالما لهم ، فلم يهيىء لهم سبل العيش الشريف ، لهوان منزلتهم الاجتماعية ، فشعروا بذلة الفقر شعورا

حادا ، ونقموا على المجتمع الذي لا يجعل العدالة ميزانا له ، والذي يعيشون في ظله بينما يفرى الجوع أحشاءهم في هذه الصحراء الرهيبة القاحلة ، فجاشت نفوسهم بالثورة على هذا المجتمع الظالم ، وكانت ثورتهم أجتماعية ينشدون من ورائها عدالة المجتمع في النظر اليهم كطائفة من الادميين لها حقوقها الانسانية ٠

ولعل السبب في نظرة المجتمع اليهم نظرة ظالمة أن غالبية الصعاليك كانوا من العبيد ، أو من أولاد الاماء الحبشيات السود خاصة مثل السليك بن السلكة وتأبط شرا وغيرهما من الذين قسا عليهم مجتمعهم فنبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم في رأيهم ٠ ثم ضاعف المجتمع من جرمه ازاء هذه الطائفة فأطلق عليهم أسم (اغربة العرب) لسواد لونهم وشؤم ولادتهم ٠

وكان المجتمع العربي في الجاهلية ارستقراطيا ـ ان صح هذا التعبير ـ يؤمن بوحدة جنسه ايمانا قويا ويتعصب لنقاء دمه تعصبا أعمى ٠ وكان مجتمعا طبقيا بكل ما في هذه الكلمة من معان ، فالعرب الخلص هم الجنس الذي له كل الحقوق ، وله السيادة والشرف ٠ والعبيد هم الطبقة التي كتب عليها الذل والشقاء الى الابد ، وسخرت لخدمة السادة ورفاهيتهم ، وهم لايستطيعون الفكاك من مصيرهم المظلم الا نادرا ٠ واذا حدث ان تنازل العربي الحر وقضى من أمته وطرا وأثمر هذا الاتصال ولدا ، لم يزد على أن يكون عبدا هجينا ، يلحقه ذل أمه ولا يناله شرف ابيه ، الا اذا أبدى نوعا خاصا من الامتياز كما فعل عنترة بن شداد ٠

وبين طبقة العرب الاحرار وطبقة العبيد توجد فئة ثالثة في المجتمع الجاهلي هي فئة الموالي ، وهم لا يرتفعون الى مستوى السادة الاحرار ، ولا ينحطون الى مرتبة العبيد الاذلاء ٠ وتتألف طبقة الموالي من عرب أحرار لجأوا الى قبيلة من القبائل ، أو الى أي فرد فيها طلبا للحماية ، ومنهم الخلعاء أيضا الذين لفظتهم قبائلهم فاضطروا الى الاحتماء بقبيلة أخرى ٠ أما الموالي غير الاحرار فهم العبيد الذين اكتسبوا حريتهم من سادتهم وتطورت علاقتهم بهم الى ولاء بدلا من الاستعباد ٠

ونادرا ما يكون الصعلوك عربيا حرا ، فالصعاليك دائما من العبيد أو من الموالي سواء أكانوا عبيدا أعتقوا أم خلعاء شذاذا فقدوا صلتهم بقبائلهم ٠ وقد كان اللون الاسود عنصرا موجودا في بعضهم ـ مثل السليك بن السلكة وتأبط شرا ـ ليذكر أصحابه بعبوديتهم ، فيجتمع الاحساس الحاد بذل الرق الى الشعور العنيف بالفقر ، ويشتد الاغراق في تصور ظلم المجتمع لهذه الطائفة التي تريد أن تعيش كما يعيش بقية الناس ، ولكن المجتمع لا يمكنهم من ذلك ٠ فقد نشأ الشنفرى مثلا في بني سلامان بن مفرج حتى صار واحدا منهم ٠ بل اتخذه أحد رجال القبيلة ابنا له ، وفي يوم من الايام قال الشنفرى لابنة هذا الرجل والتي تولد الاحساس في نفسه بأنها أخت له « أغسلي رأسي يا أخية » ، فثارت فيها عصبية الدم النقي وأنكرت عليه أن يكون أخا لها ، فلطمته على وجهه ، وكانت هذه اللطمة بمثابة الارتداد العنيف للماضي بكل

أوضاره ، بل أنها جعلت الشنفرى يصحو من غفوة لذيذة ليشعر فجأة بذل مولده وهوان وضعه الاجتماعي • وقد حاول أن يرد لنفسه بعض اعتبارها بمحاولة اقناعها بأنه لا يقل عن تلك الفتاة سموا في النسب من ناحية أبيه أو من ناحيه أمه • ونلاحظ أنه يطلق على أمه اسم « ابنة الاحرار » مع أننا نعلم من جميع أقوال الرواة أنها أمة • وقد يكون المقصود بالتسمية أنها أمة فارسية ، فقد شاع اصطلاح بني الاحرار فيما بعد ، وهو ترجمة حرفية لكلمة « آزاد مرد » ، تلك التسمية الفارسية للارستقراطية الايرانية ، يقول الشنفرى :ـ

ألا ليت شعري والتلهف ضلة ... بما ضربت كف الفتاة هجينها

ولو علمت قعسوس[1] أنساب والدي ... ووالدها ظلت تقاصر دونها

أنا ابن خيار الحجر بيتا ومنصبا ... وأمي ابنة الاحرار لو تعرفينها

وأبيات الشنفري تلك هي مجرد محاولة لاقناع النفس بسمو المنبت على الرغم من هوان المنزلة الاجتماعية ، ولكن أدب الصعاليك كله يتميز بصفة الواقعية التي تعتبر من أهم أركان الادب الاشتراكي ، فهم لا يهربون من واقعهم أبدا ، ولا ينطلقون بأشعارهم في سموات الخيال والوهم ، ولكنهم يعترفون بواقعهم المرير بكل ما فيه ، فهذا عمرو ذو الكلب لا يجد غضاضة في الاعتراف بأن أمه قينة ، يقول :

وأمي قينة ان لم تروني ... بعورش تحت عرعرها الطوال

والشعراء الصعاليك يعترفون جميعا بفقرهم وجوعهم ، ونحس في اعترافهم تعليلا لثورتهم العنيفة على مجتمعهم الظالم الذي أهزلهم وأسمن غيرهم ، يقول عروة بن الورد :ـ

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح

ويذكر الاعلم الهذلي أهله الذين تركهم جياعا ، وأولاده الصغار الشعث الذين يتربصون ناظرين لاقاربهم عسى أن يطرحوا لهم شيئا من الطعام فيقول :ـ

وذكرت أهلي بالعراء وحاجة الشعث التوالب
المصرمين من التلاد اللامحين الى الاقارب[2]

ويشكو السليك بن السلكة ما فعل به الجوع في أشهر الصيف القائظة حتى كان يصيبه بالدوار والاغماء ، ويكاد يورده حتفه ، فيقول :ـ

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة ... وكدت لاسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني ... اذا قمت تغشاني ظلال فأسدف

أما تأبط شرا فقد أصابه الجوع بالهزال فالتصقت أمعاؤه ، وبرزت أضلاعه ، فيقول :ـ

قليل ادخـــار الزاد الا تعلـــة	وقد نشز الشرسوف والتصق المعى

وأما الشنفرى فيحدثنا عما يملك في دنياه البائسة ، فلا نجد لـــه غير بقية نعلين وثوب ممزق ، يقول :

وليس جهازى غير نعلين أسحقت	صدورهما مخصـــورة لا تخصف
وضنية جرد وأخـــلاق ريطـــة	اذا أنهجت من جـانب لاتكفـف(٣)

ومع هذه الواقعية في أدب الصعاليك حين يعترفون بفقرهم وجوعهم ، نحس أنهم قد بلغوا درجة عالية من عزة النفس وقوتها ، وأنهم لفرط صحبتهم للفقر والجوع قد تدربوا على قهر أنفسهم وضبطها ، وحرموا عليها التهالك على الطعام والملذات ، حتى لا يصبح نيل الزاد عندهم مثلا أعلى ينســون في سبيله كرامتهم وعزة نفوسهم • يحدثنا الرواة فيقولون : أقفر أبو خــراش الهذلي من الزاد اياما ، ثم مر بامرأة من هذيل جزلة شريفة ، فأمرت له بشاة، فذبحت وشويت ، فلما وجد بطنه ريح الطعام قرقر فضرب بيده على بطنــه وقال :ـ « انك لتقرقر لرائحة الطعام ، والله لاطعمت منه شيئا • ثم قال: يا ربة البيت : هل عندك شيء من صبر أو مر ؟ فقالت : تصنع به ماذا ؟ قال : أريده • فأتته منه بشيء ، فاقتحمه ثم أهوى الى بعـــيره فركبـــه ، فناشدته المرأة فأبى ، فقالت له : ياهذا ، هل رأيت بأســـا ، أو أنكرت شيئا ؟ قال : لا والله ، ثم مضى وأنشأ يقول :ـ

وانى لأثوى الجوع حتى يملني	فيذهبلم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغتبق الماء القـراح فأكتفـي	اذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم
أرد شجاع البطن قد تعلمينه	وأوثر غـيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيـا برغم وذلـــة	وللموت خير من حياة على رغم

والشنفرى يرسم لنا صورة أخرى لهذا التعفف الذي تتسم به حياة الصعاليك الواقعية ، والذى يقهرون به أنفسهم برغم فقرها وجوعهـــا ، ليثبتوا لأنفسهم حيث يظن بها الضعف ، وليثبتوا أن الفقير اذا تعفف كان أقوى وأكرم من الغني الجشع المتهالك على الماديات من الأمور ، يقـــول الشنفرى :ـ

اذا مدت الأيدي الى الزاد لم أكن	بأعجلهم اذ أجشع القـوم أعجل
وما ذاك الا بسطة من تطـــول	عليهم وكان الأفضل المتطـــول
وأستف ترب الأرض كي لايرى له	على من الفضـــل امرؤ متفضـــل
ولولا اتقاء الذل لم يلف مشرب	يعاش بـــه الا لـــدى ومأكـــل

ولكن نفسا حرة لا تقيم بي		على الخسف الا ريثما أتحول
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى		وفيها لمن رام العلا متعزل

وصورة هذا التعفف الشديد الذي يبلغ أحيانا درجة القسوة على النفس وتعذيبها ، كما رأينا في قصة أبي خراش الهذلي ، انما هي جزء من الصراع الطبقي الذي يتسم به أدب الشعراء الصعاليك ، والذى يعتبر من عناصر اشتراكيتهم • فقد أجمع النقاد على أن أهم وظيفة للأدب الاشتراكي أن يكون سلاحا من أسلحة الصراع الطبقي فيحارب الاستغلال الفردي والظلم الاجتماعي ، ويدعو الى المساواة واصلاح المجتمع • ولهذا نجد أن تعفف الصعاليك كان مبنيا على أساس نفسي واضح ذكرته من قبل • وهو أنهم يريدون أن يثبتوا القوة لأنفسهم حيث يظن بهم الضعف ، وليبينوا أن الفقير اذا تعفف كان أقوى وأكرم من الغني الجشع المتهالك على الدنيا • ويحس القاريء هذه المقارنة في بيت أبي خراش الذى يقول فيه :ـ

وأغتبق الماء القراح فأكتفي		اذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم

والمزلج هو البخيل ، أو الدون من الناس ، ويقصد به أبو خراش الغني بطبيعة الحال •

ونحس هذه المقارنة أيضا ، أو هذا الصراع الطبقي في مقطوعة الشنفرى في قوله : « اذ أجشع القوم أعجل » ويقصد به الغني أيضا • كما يعنيه في قوله : (امرؤ متفضل) •

والصعاليك يتحدثون في وضوح عن طبقة الموسرين الذين يوجهون اليهم الطعنات ، فهناك ثلاث طوائف يوضح تأبط شرا أنه كان يقصدها باغاراته : أصحاب المواشي ، وأصحاب المزارع الخصيبة ، وأصحاب النوق الحوامل ، يقول :ـ

فيوما على أهل المواشي وتارة		لأهل ركيب ذي ثميل وسنبل(٤)

ويقول في موضع آخر :ـ

ولكن أرباب المخاض يشفهم		اذا اقتفروه واحدا أو مشيعا(٥)

ويحلل الدكتور يوسف خليف أبياتا للأعلم الصعلوك فيقول انه يرسم فيها صورة ساخرة طريفة لنموذج من أولئك الذين يجعل منهم أهدافا لغزواته ، فهو رجل غني سمين مترف ، يعيش بين السنائر والحظائر ، وجهت امرأته اليه برها وعنايتها حتى سمنته فأصبح من صنعها ، ولكنه مع ذلك ضعيف القلب ، لو اخترق صحراء لفزعته شخوصها ، ولحسب كل شخص فيها فارسا ، لأنه خائف من أولئك الصعاليك المتربصين به وبأمثاله في أرجائها ، الذين اذا رأوه انصبوا عليه كما تتفجر المياه من حوض متهدم

يحاول صاحبه اصلاحه دون جدوى ، وعندئذ تضطرب نفسه ، وينهار كيانه ويفر هاربا ، ويذهب صنع امرأته فيه سدى ، يقول الأعلم :ـ

أيسخط غزونا رجل سـمين ... تكننـه السـتارة والكنيـف
ولو رفعت ثوبـك في خروق ... تروعـك في مهالكها الشدوف
تخـاف لزام عاديـة تعـول ... كمـا يتفجر الحوض اللقيـف
اذن لذكرت حالك غير عصـر ... وأفسد صنعها فيك الوجيف(٦)

وكان الصعاليك يعبرون عن سوء توزيع الثروة في مجتمعهم ببخـل الأغنياء وعقوقهم للفقراء ، وكان مقياس الغنى في هذا المجتمع كثرة الابل ، ولهذا نجد الأحيمر السعدي يصف فقره وتجرده من الابل ، في الوقت الذى يملك غيره الكثير منها ، وقد كان ينبغي أن يجعل له نصيبا فيما يملك ، يقـول :ـ

واني لأستحيى لنفسي أن أرى ... أمر بحبل ليس فيـه بعـير
وان أسأل العبد اللئيم بعيره ... وبعران ربـي في البلاد كثير

ونجد عروة بن الورد يوضح لنا صورا من الصراع الطبقي حين يتحدث عن اغارته على أصحاب الابل الكثيرة البخلاء الذين لا يجعلون نصيبا للفقراء فيها ، فيقول ساخطا على تخمة الغني الذي يجلس دون أن يصنع شيئا ، بينما يهلك الفقير وهو يشقى :

لعل انطلاقي في البلاد ورحلتي ... وشدي حيازيم المطية بالرحـل
سيدفعني يوما الى رب هجمة ... يدافع عنها بالعقوق وبالبخل(٧)

وفي سبيل هذا الصراع الطبقي ، ومن أجل اذكائه في نفوس الصعاليك ضحية المجتمع الظالم ، حاول أحرارهم أن يجعلوا من هذا الصراع ثورة عنيفة تطيح بالمجتمع ، فأخذوا يهاجمون اخوانهم الذين استكانوا لحياة الذل ورضوا باغلال العبودية ، وعاشوا في دعة وخمول خلف أدبار البيوت قانعين بظلم المجتمع لهم ، ويرسم عروة بن الورد لهذه الطائفة صورة ساخرة في قوله :ـ

لحا الله صعلوكا اذا جن ليله ... مصافي المشاش آلفا كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة ... أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعسـا ... يحت الحصى عن جنبه المتعفر
يعـين نساء الحي ما يستعنه ... فيمسي طليحا كالبعير المحسـر

وفي الوقت نفسه يرسم لنا عروة المثل الأعلى للصعلوك الثائر عـلى مجتمعه الذي لا يرضخ للظلم ولا يستكين للذل ، ولكنه يحب الصراع ويقبل عليه فيقول :ـ

ولكن صعلوكا صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر
وان بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المتنظر
فذلك ان يلق المنية يلقها حميدا ، وان يستغن يوما فأجدر

ما أبعد انفارق بين الصورتين : صورة الصعلوك الخامل الذي يتهافت على فضلات الطعام ولا يدع حتى المشاش وهو العظم الذى يسهل مضغه ، واذا نال هذا الصعلوك برا من صديق غني عد ذلك غاية الغايات وبات سعيدا بتفضل الناس عليه ، وهو لتفاهته وخمول نفسه ينام عشاء ، فاذا أصبح الصباح لم يخف من نومه نشيطا ، بل ظل على خموله ، برغم نومه الطويل ، لا هم له الا أن ينفض ما علق بجنبه من الحصى ، كما يفعل البهيم ٠

وهذا الصعلوك الساقط الهمة لا يأنف من قضاء ما تكلفه به نساء الحي المترفات فهو في خدمتهن دائما ويظل يبذل جهده في هذه الأعمال الوضيعة التي لا تليق برجل مكافح حتى اذا أمسى الليل نام كالحيوان اعياء ٠

أما الصورة الأخرى : صورة الصعلوك الجدير بالصعلكة في رأى عروة فهو الفاتك الشجاع الذي يضيء وجهه كالشهاب لقوة عزمه وتصميمه ، وبسبب حيويته وتوثبه ٠ وهو اذا هجم على أعدائه حاولوا الفرار من وجهه خوفا من فتكه ، فاذا ابتعدوا عن طريقه ظلوا على خوفهم منه ، حتى انهم ينظرون في فزع حولهم يتوقعون مجيئه في أي وقت ٠

ومثل هذا الهجوم الذى شنه عروة على الصعاليك الخاملين نجده عند الشعراء الصعاليك الأحرار جميعا ، فهم يأنفون من اخوانهم القاعدين الوادعين ، ويحاولون أن يستنفروا همتهم ، يقول الشنفرى :ـ

لاتحسبيني مثل من هو قاعد على عثة أو واثق بكساد
اذا انفلتت مني جواد كريمة وثبت فلم أخطيء عنان جوادي[٨]

ويوضح السليك بن السلكة لمحبوبته الفرق بين الصعلوك الخامل المستكين ، والصعلوك الحر الثائر ، فيقول :ـ

ألا عتبت علي فصارمتني وأعجبها ذوو اللمم الطوال
فاني يا ابنة الأقوام أربي على فضل الوضيء من الرجال
فلا تصلي بصعلوك نئوم اذا أمسى يعد من العيال
ولكن كل صعلوك ضروب بنصل السيف هامات الرجال

وبسبب هذا الصراع الطبقي أيضا استهان الصعاليك بحياتهم وتغنوا بالبطولة والشجاعة ، وكان شعارهم الموت ولا حياة العبودية ، والهلاك ولا التغاضي عن ظلم المجتمع لهم ٠ وفي هذه المعاني كثرت أشعارهم ، حتى لنجد

أنفسنا أمام ابطال تقترب مغامراتهم من الخيال ، وتكاد تصبح من الأساطير والخرافات ، ويصف لنا تأبط شرا حياة الصعلوك الفاتك الثائر على مجتمعه فيقـــول :ـــ

قليل التشكي للمهم يصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسي بغيرها ... جحيشا ويعروري ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى ... بمنخرق من شده المتدارك
اذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالىء من قلب شيحان فاتك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه ... الى سلة من حد أخلق صائك
اذا هزه في عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي ... بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

وهذا الصعلوك الذي لا يشكو ما ينزل به من الخطوب ـ على عظمها ـ لقوة احتماله وصبره ، والذي ينطلق في الصحاري مستأنسا بنفسه ويقتحم المخاطر والمهالك ، والذي يسبق الريح من حيث يقصد بعدوه السريع المتلاحق ، والذي لا يكاد النوم يزور جفنيه ، فان زاره لم ينم قلبه الشجاع الحازم . فاذا كره القلب شيئا كانت العين صاحبه الذي يشير عليه فيستل سيفه ، وعندئذ تفرح المنايا لأنها تعلم أن استلاله للسيف سوف يعقبه ضحايا . والصعلوك لا يضل في قصده أبدا ، فهو في وحدته في الصحراء المخوفة يعرف طريقه جيدا ، ويهتدي الى غايته ، كما تهتدي النجوم في سيرها .

وهذه الحياة العنيفة المجهدة تهون على صاحبها حين يمسي في موضع المخاطرة والاقدام ، ويذكر تأبط شرا ذلك المعنى حين يكمل رسم صورة الصعلوك في قصيدة أخرى فيقول :ـــ

قليل غرار النوم أكبر همه ... دم الثأر أو يلقى كميا مقنعا
قليل ادخار الزاد الا تقلة ... وقد نشز الشرسوف والتصق المعى
يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه ... ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتعا
واني ولا علم لأعلم أنني ... سألقى سنان الموت يرشق أضلعا
على غرة أو جهرة من مكاثر ... أطال نزال الموت حتى تسعسعا
ومن يضرب الأبطال لابد أنه ... سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا(٩)

فالصعلوك الذي يأنس بالوحشة في الصحراء المخوفة ، والذي ينام يقظان يحلم بالقتال والمعارك ، ولا يفكر في ادخار الزاد ، بل يتحمل الجوع والهزال في صبر عجيب ، وفي مكان موحش مقفر ، لا يجد فيه الا الوحش يألفه ويأنس به ، هذا الصعلوك يعلم ان الموت حق ، ولكنه لا يقصد الموت الهين ، بل الموت في أثناء الصراع والقتال ، فتلك نهاية جديرة بالصعلوك الثائر .

وفي معنى الاقدام والمخاطرة بالنفس والاستهانة بالحياة ، الذي يرجع في الأصل الى ثورة الصعاليك على مجتمعهم ، والاستهانة بقيمه الظالمة ، يقول عمرو بن براقة مخاطبا صاحبته :ـ

ألم تعلمي ان الصعاليك نومهم — قليل اذا نام الدثـور المسـالم
اذا الليل أدجى واكفهرت نجومه — وصاح من الإفراط هـام جوائم
ومال بأصحاب الكرى غالباتـه — فاني على أمر الغواية حـازم
متى تجمع القلب الذكي وصارما — وأنفـا حميـا تجتنبك المظالم
ومن يطلب المال الممنع بالقنـا — يعش ذا غنى أو تخترمه المخارم

وما دمنا قد عرفنا دوافع ثورة الصعاليك على مجتمعهم ، وشـهدنا في أشعارهم أصداء الصراع الطبقي الذي خاضوه ، والذى جعلناه عنصرا مميزا في اشتراكية أدبهم ، يحق لنا ان نتساءل : الى أين كانت تتجه آمال الصعاليك في ثورتهم ؟ وما أهدافها ؟ هل كانوا يريدون الاطاحة بالمجتمع انتقاما لأنفسهم أو تراهم في ثورتهم على ضلال لا يعرفون الى أين يتجهون ؟

الحقيقة ان المتأمل في أدب الصعاليك يرى أنهم كانوا في ثورتهم عـلى مجتمعهم يهدفون الى الاصلاح وينشدون المساواة والعدالة الاجتماعية • وهذه الأهداف التي عبروا عنها في شعرهم تعتبر من أهم عناصر اشتراكيتهم أو مظاهر الاشتراكية في أدبهم • فالصعاليك لم يهاجموا القوافل أو يغـيروا على القبائل لرغبتهم في الاغارة ذاتها ، ولا ليفيدوا غنى وثروة وجاها يرفـع من مقامهم في المجتمع الارستقراطي الذي يعيشون فيه • بل نراهم على النقيض من ذلك تماما ، يأخذون من الأغنياء ليعطوا الفقراء ، ولم نر واحدا منهـم يصيب الغنى قط أو كانت الثروة هدفا له ، بل ظلوا جميعا فقراء على الرغم من كثرة مغانمهم وأسلابهم من اغاراتهم ، وذلك بسبب اباحتهم ما في أيديهم لأمثالهم من الفقراء • وهنا يبرز معنى أصيل في مظاهر اشتراكيتهم • وقـد عبر عروة بن الورد زعيم الصعاليك عن مذهبهم الاشتراكي فصور لنـا مشاركة الفقراء له في انائه ، واكتفاءه بالماء القراح حتى في ايام الشتاء الباردة ، ليوفر لهم طعامهم ، بل ان شعوره بحق الفقراء فيما يغنم من المال يشـتد ويقوى حتى ليشعر أنه يأخذ من جسده ليعطي أجسادهم ، يقول :ـ

اني امرؤ عافى انائى شـركة — وأنت امرؤ عافى انائـك واحد
أتهزأ مني ان سمنت وقد ترى — بجسمي مس الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثـيرة — وأحسـو قراح الماء والماء بارد

وكان عروة بن الورد فيما يروي لنا صاحب الاغاني يهاجم الاغنياء الأشحاء ليوزع ما يغنمه منهم على الفقراء الذين كانوا يلتفون حوله ويقصدون رحابه في سنوات الجفاف والقحط ، يقول في ذلك :ـ

اذا قلت قد جاء الغنى حال دونه   أبو صبية يشكو المفاقر أعجف
له خلة لا يدخل الحق دونهـا   كريم أصابته حـوادث تجرف

وعروة لا يعتبر قصد الفقراء له نوعا من التطفل ، كما لا يعتبر اغداقه المال عليهم من قبيل التفضل ، بل انه يرى أن من واجبه الاغارة على الأغنياء وجمع الأموال في سبيل توزيعها على الفقراء أصحاب الحق الأول فيهـا ، تحقيقا للمساواة والعدالة الأجتماعية ، يقول في ذلك :ـ

دعيني أطوف في البلاد لعلنـي   أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
أليس عظيمـا أن تلم ملمـة   وليس علينا فى الحقوق معول
فان نحن لم نملك دفاعا بحادث   تلم بـه الأيام فالموت أجمـل

ومن أخبار عروة أنه كان اذا أصابت الناس سنة شديدة يجمع المرضى والضعفاء والمسنين من عشيرته « ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم ، ومن قوي منهم اما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته ـ خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبا حتى اذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ، ألحق كل انسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة ان كانوا غنموها ، فربما أتى الانسان منهم أهله وقد استغنى » .

ويعلق الدكتور يوسف خليف على هذا الاتجاه الانساني فى حيـاة عروة الصعاليك فيقول « كانت الصعلكة عند عروة نزعة انسانية نبيلة ، وضريبة يدفعها القوي للضعيف ، والغني للفقير وفكرة اشتراكية تشـرك الفقراء في مال الأغنياء وتجعل لهم فيه نصيبا ، بل حقا يغتصبونه ان لـم يؤد لهم ، وتهدف الى تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية والتـوازن الاقتصادي بين طبقتي المجتمع المتباعدتين : طبقة الأغنياء ، وطبقة الفقـراء فالغزو والاغارة للسلب والنهب لم يعد عنده وسيلة وغاية ، وانما أصبح وسيلة غايتها تحقيق نزعته الانسانية وفكرته الاشتراكية »(١٠) .

وهكذا نرى أن شعر الصعاليك كانت فيه سمات قويـة من الأدب الأشتراكي ، بما فيه من موضوعية انسانية ، وواقعية تبعد عن الخيـال والأوهام ، وتصوير للصراع الطبقي ومحاولة الاستغلال الفردي ، وتشدان المساواة والعدالة الاجتماعية ، وبما فيه أيضا من التزام قوي بالحدود الطبيعية لحياة الصعاليك وموقفهم من المجتمع وأهدافهم التي يسعون اليها ويبذلـون أنفسهم في سبيلها .

---

(١) قعسوس : لقب للفتاة السلامية التي ضربته .
(٢) التولب : الجحش ، المصرم : الخالي من المال
(٣) ديوان الشنفرى : (مجموعة الطرائف الادبية) . أسحقت : بليت ، النعل المخصورة المستدقة الوسط ، لاتخصف : أي لا تكون صالحة لخرزها لانها بليت ، الضنية : نوع من الثياب في الغالب الجرد : البالي ، الريطة : الثوب من قطعة واحـدة ، أنهجت : بليت ، تكفف : تخاط .

(٤) الركيب : المزرعة والشميل : ألحب ٠

(٥) المخاض : النوق الحوامل ، يشفهم يهزلهم ، اقتفروه : تتبعوا أثره ، الواحد : المنفرد ، المشبع : المتبوع بغيره في قطيع ٠

(٦) الكنيف : الحظيرة ، الخروق : جمع خرق وهي الارض الواسعة تتخرق فيها الرياح، الشدوف : جمع شدف وهو الشخص ، اللزام : ألعذاب والشعول : الناقة التي في أطبائهـا زيادة ، الحوض : اللقيف المستوى من نواحيه ٠ الوجيف : نوع من السير أو الاضطراب ٠

(٧) الهجمة من الابل ما بين ألاربعين الى المائة ٠

(٨) ديوان الشنفري (مجموعة الطرائف الأدبية) ، العثة : الحشرة المعروفة التـي تأكـل الملابس ٠

(٩) ديوان الحماسة ١ : ١٩٠ ٠

(١٠) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : (٤٧) ٠

آراء وتعقيبات

الشعراء الصعاليك و (الاشتراكية)

نوري حمودي القيسي

اطلعت على المقال المنشور في مجلتكم الموقرة (الجزء الثاني من السنة الثانية) والموسوم : ب (اشتراكية الشعراء الصعاليك) لكاتبه الفاضل الدكتور محمد مصطفى هداره ، ونظرا لصلتي بالشعر الجاهلي ، وارتباطي بموضوعاته ، فقد وددت ان اعلق على بعض الجوانب التي اثارها الدكتور في مقاله ، راجيا أن تجد تعليقاتي رضى في نفسه ، وقبولا لديه ٠

ان الحديث عن الشعراء الصعاليك طريف ، واطرف ما فيه جوانبه الواقعية التي اشار اليها الدكتور مصطفى في مقاله ، والتي سبقه اليها استاذي الفاضل الدكتور يوسف خليف في رسالته التي قدمها لنيل درجة الماجستير في جامعة القاهرة وهي « الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي » ، والتي كان لها صدى بعيد في نفوس الدارسين والمتتبعين لحركة الشعر ، والمؤرخين الذين عنوا بدراسة هذه الفترة ٠ وكنت اظن ان الدكتور مصطفى قد جاء بشيء جديد في مقاله هذا ، يضفي على آراء الدكتور خليف مسحة جديدة او تفسيرا مغايرا ، أو ربما عثر على نماذج مفقودة لهؤلاء الشعراء (الصعاليك) ، تفسر لنا جانبا من سلوكهم ونمطا من أنماط حياتهم ، كل هذه الافكار كانت تدور في ذهني وانا اتصفح المقال ، وانتهيت منه ولم اجد نفسي مقتنعا ـ كما وجدتها من قبل ـ بالفكرة التي يناقشها الدكتور مصطفى في مقاله ، بل لا اوصف بالمغالاة اذا قلت : ان الدكتور مصطفى قد استشهد باغلب النماذج التي استشهد بها الدكتور خليف وحتى التعليقات التي كان الدكتور يقدم بها نماذجه[1] ٠

انني كما اسلفت لم اقتنع بفكرة الدكتور يوسف ، والتي اعاد ذكرها الدكتور مصطفى ، لانني اعتبر هذه البحوث ، وهذه التسميات من

---

(١) قارن بين نماذج التي اوردها الدكتور مصطفى في مقاله والنماذج التي أعتمد عليها الدكتور يوسف في كتابه في الصفحات ١٤٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، وربما تكون هناك نماذج اخرى وفي صفحات اخرى من الكتاب لم تتهيأ لي الفرصة لمشاهدتها ٠

الظواهر التي بدأت تتخلل الدراسات الادبية الجديدة ، وان هذه التسميات تفسير بعيد ، لحوادث التاريخ ، وقسوة عنيفة على الظروف التي احاطت بالافراد ، ليسلكوا طريقا معينا ، ومحاولة من محاولات اقحام المصطلحات في غير ما وضعت له ، واطلاقها على غير مسبباتها الحقيقية[٢] .

لاشك ان مثل هذه الظواهر التي بدأنا نحس بتسربها في هذه الدراسات ، لا تعطي الادب العربي سماته الحقيقية ، ولا تضع القيم الاصيلة ــ التي حرص الشعراء على ابرازها وتصويرها في موضعها المعين ، وهي بالتالي عملية من عمليات التوجيه الاجباري ، لآراء لم يود اصحابها لها هذا التوجيه ، ولم يفكروا ــ في يوم من الايام ــ بان يكون شعرهم سلاحا طيعا من اسلحة (الصراع الطبقي) ، الذي ارتسم في اذهان ادبائنا المعاصرين ، أو ان يكونوا معبرين عن سوء توزيع الثروة في المجتمع ، كما يحلو للبعض ان ينعتهم .

فالاشتراكية ــ التي نعت بها الصعاليك ــ بكل مظاهرها الحديثة ، ونظرياتها المختلفة ، تخطيط علمي دقيق ، ومنهج لتحقيق العدالة الاجتماعية ، واثارة الابداع ، والارتفاع بكرامة الانسان الى المستوى اللائق ، واعادة الاوضاع الى سويتها ، كما أنها تسعى الى خلق جو من المساواة بين ابناء الامة الواحدة ، في امكاناتهم وظروفهم ، وتحاول القضاء على استغلال الانسان لاخيه الانسان ، والوصول الى مجتمع متحرر ، تخضع فيه جميع وسائل الانتاج لمصلحة الانسان نفسه ، وتسخر في سبيل المجموع ، فهل كان (الصعاليك) يسعون الى هذه (الاهداف) ، وهل كان (تفكيرهم) يتجه الى هذه الوجهة الموضوعية ، اظن اننا لا نجانب الحق في تفكيرنا اذا ذهبنا هذا المذهب ، واندفعنا باحكامنا هذا الاندفاع .

وشيء اخر أود الاشارة اليه فأقول : ان الاشتراكية ــ حسبما يتضح من مفهومها ــ نظام يحل محل نظام قائم بعد ازالته ، نتيجة ثورة ، أو تغيير في اسلوب الحكم ، او انتقال من مرحلة الى مرحلة أخرى ، وكلنا يعلم أن العصر الجاهلي لم يتمخض عن نظام سابق ، وانما هو استمرار لنظام قبلي ساد الجزيرة قرونا طويلة ، ثم ان المجتمع الجاهلي لم يكن مجتمعا (رأسماليا) أو (صناعيا) ، حتى يمكن أن يظهر فيه نوع من (الاشتراكية) ، وانما كان مجتمعا بسيطا ، لم تتعقد مشاكله التعقيد الذي يساعد على ظهور هذه (النظرية) ، أو غيرها من (النظريات) . فالاشتراكية نظرية يقوم عليها تنظيم مجتمع معين ، وتهدف الى اغراض تتعلق (بوسائل الانتاج) واستملاكها وادارتها ، وفي كل هذا نجد ان

---

(٢) اسهب الدكتور مصطفى في استعمال عبارات (الصراع الطبقي) و (الارستقراطية) و (الاشتراكية) و (مجتمع طبقي) و (سوء توزيع الثروة) و (مذهب اجتماعي واقتصادي) وكل هذه المصطلحات لا يمكن تطبيقها على العصر الجاهلي .

العصر الذي عاشه (عروة) ، أو عاشه (غيره من الصعاليك) ، لم يملك من مقومات الحياة التي ظهرت فيها هذه (النظرية) شيئا ، والواقع ان التاريخ العربي كان يسجل صراعا مع (ظروف الحياة) ، لا (صراعا بين الطبقات) كما اطلق عليه ، ومن هذا نستطيع ان نقول : أن مشاركة (عروة) للفقراء ، لم تكن مرحلة من مراحل النمو الاقتصادي ، ولا نظاما جديدا من انظمة (الانتاج) و (التوزيع) ، وانما هو شعور عميق بالظروف الملحة التي كان يحسها بعض الناس ، أو تعانيها فئة منهم ، ووسيلة من الوسائل التي سلكتها (فئة الصعاليك) ، لحض الجهود الفردية للعمل ، والدعوة الى التخفيف عما تجابهه هذه الجماعة من الفقراء ، وهذا تقييم للمعاني الانسانية الابداعية التي تجلت واضحة في الذهن العربي ، وامتزجت بحضارته ، فكانت دليلا من ادلة الشمائل العربية في العصر الجاهلي ، وفي العصور التي أعقبته ، وهو من جهة اخرى احساس بالمسؤولية التي فرضتها عليه طبيعة الحياة آنذاك ، ليعكس لنا المستوى الخلقي الرفيع الذي عاشته الاجيال السابقة .

فالسلوك اذن سلوك طبيعي ، والمشاركة التي طبقها (عروة) وصحبه من (الصعاليك) كانت تقوم على المفاهيم البسيطة التي تعارف عليها الناس في عصره ، نتيجة عوامل غير العوامل التي انبعثت منها (الاشتراكية الحديثة) ، كما ان القضايا التي تعالجها (الاشتراكية) في العصر الحديث قد تعقدت ، وأصبحت قائمة بذاتها ، لها حلولها المستوحاة من مستحدثات العصر ، ومن متطلباته وظروفه ، اما مشاركة الصعاليك و (فلسفتهم) ، فهي مستحدثة من طبيعة ذلك العصر وظروفه ، وهي ميزة لا يكاد ينفرد بها نفر معين ، وانما هي الطبيعة التي يشارك فيها العرب عامة ، فكما كان (عروة) كان (حاتم الطائي)، وكان (كعب بن مامة)، وكان (أبو دؤاد الايادي) و (دريد بن الصمة) ، و(ربيعة بن مكدم)، وغيرهم من فرسان العرب وفتيانهم ولكن الذي ميز (عروة) عن غيره ، هو محاولته تطبيق ذلك السلوك بدقة ، والمحافظة على (عياله) الذين تكلف بهم .

فالشعراء الصعاليك الذين اتسم شعرهم بسمات معينة ، وجمعتهم وحدة موضوعية واحدة ، لم يكونوا بالدرجة التي بدأنا نلمسها في تفسير البعض لهذه السمات ، أو لتلك الوحدة ، وانه من الخطأ ان نطلق (المصطلحات الحديثة) التي نشأت تحت ظروف معينة ، واخذت (شكلا ثابتا) ، على أولئك الشعراء الذين لم يسمعوا بأبسط هذه المصطلحات ولم يمروا بأقل هذه المراحل ، ولان هذه المصطلحات ترتبط باذهان الناس بمفاهيم خاصة ، فقياس الناس – الذين عاشوا قبل مئات السنين – بمقاييس العصر الحديث ، وحصر نشاطهم وأعمالهم وانتاجهم لتقييم بعيد عن تقييمهم ، عمل لا ترتضيه

الدراسة العلمية الدقيقة ، لان هذا يشكل اجحافا بحق اولئـــك الشعراء (المساكين) ، الذين وقعوا في قبضة هذه المصطلحات دون وعي منهم ٠

واذا قدر لنـــا أن نحكم ، وجاز لنـا أن نطلق على (الشنفرى) و (تأبط شرا) و (عروة) (اشتراكيين) ، فما هو حكمنـــا على (حاتم الطائي) و (كعب بن مامة) وغيرهما من اجواد العرب الذين وصلت اخبار كرمهم حدا لا يصدق ، وما هو حكمنا على (هرم بن سنان) ، و (الحارث ابن عوف) وقد صنعا صنيعا جليلا يعجز اللسان عن تصويره ، وما هو حكمنا على (ابي دؤاد) وغيره من الاخيار ، الذين أجاروا الحيوان وحموه ، وما حكمنا على غيرهم من الاشخاص الذين ارتبطت أسماؤهم بحوادث معينة خلدت ذكرهم ، ألم يكن حكمنا على هؤلاء ـ اذا قدر لنا ان نمنح الالقاب والاحكام ـ حكما فيه نوع من الفوضى والاعتداء ومغايرة الواقع ٠

وبعد ٠ فارجو من الدكتور مصطفى هداره ان يكون سمحا في قراءة التعقيب البسيط ، الذي لم يكن رائده الا الحق ، ووضع الامور في المواضع التي تستحقها ، والتي وضعت لها ، وفي ذلك وفاء لاولئك الشعراء الذين وسموا بالصعلكة ، وقالوا شعرا لم يخطر ببالهم أن يفسر على الوجه الذي ارادوه ، والله الموفق لكل خير ٠

تصـــويب

وقعت في مقال (شعر المخضرمين وأثر الاسلام فيه) للسيد سامي مكي العاني المنشور في العدد الماضي بعض الاخطـــاء الطباعية ٠ مثـــل (وانتقدوا) وصوابها (وانتصروا) في الآية الكريمة (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ٠٠ الخ) و (شهود) وصوابها (تهود) في (ص ١٥٧ س ٢٥) و (وفان) وصوابها (وخان) في (ص ١٥٩ س ٧) ، نود أن نلفت اليها عناية القارىء الكريم ٠